مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلـد 5 العـدد 2 / ديسمـبر 2019
ص ص: 153-166

التَّفكير التَّربوي عند البشير الابراهيمي (1889 – 1965)

The Educational Thinking of Bashir Al-Ibrahimi (1889- 1965)

سمير معزوزن
جامعة عبد الحفيظ بوالصوف – ميلة (الجزائر)، samirmazouzen@yahoo.fr

الاستلام:2019/10/27 القبول:2019/12/28 النشر:2019/12/31

الملخص:
إنَّ الفكر التَّربوي عند البشير الابراهيمي كان منصبًا على تكوين جيل مسلم وتنشئته وإعداده إعدادا متكاملا من جميع مراحل نمو الفرد النفسية والعقلية والمعرفية والاجتماعية، ووفق القيم والمبادئ الإسلامية التي تتماشى وتتوافق كثيرًا مع التربية الحديثة. وعليه، ارتبطت التربية عند الشيخ البشير الإبراهيمي على أسس علمية تحمل كل معالم التغيير عند الفرد أو المجتمع. وإن هذا الاهتمام الكبير من قبل الإبراهيمي لعناصر العلمية التعليمية من المعلم والمتعلم وانتقالاً إلى المحتوى التَّعليمي يدل دلالة قاطعة على نظرة الشيخ الثاقبة لبناء الفكر المتحرر عند المتعلِّم. ومن هنا، نسعى جاهدين من خلال هذا المقال إلى الإجابة عن الإشكالية الأساسية الآتية: ما هي أهم الأفكار التربوية التي نجدها في آثار البشير الإبراهيمي؟ وإلى أي مدى تتوافق مع مبادئ وأفكار التربية الحديثة؟
كلمات مفتاحية: التفكير التربوي؛ الفكر الإصلاحي؛ العملية التعليمية؛ البشير الإبراهيمي؛

Abstract :
The educational thought of Al-Bashir Al-Ibrahimi was focused on the formation, formation, and preparation of a Muslim generation in an integrated manner from all stages of individual psychological, mental, cognitive, and social development, in accordance with Islamic values and principles that are closely aligned with and compatible with modern education. Accordingly, education was linked to Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi on scientific grounds that carry all the parameters of change for an individual or society. This great interest by Al-Ibrahimi to the elements of

المؤلف المرسل: سمير معزوزن، **الايميل:** samirmazouzen@yahoo.fr

educational science from the teacher and the learner and a transition to educational content indicates a conclusive indication of the Sheikh's insightful view of building the liberal thought of the learner. Hence, we strive through this article to answer the following basic problem: What are the most important educational ideas that we find in the effects of Al-Bashir Al-Ibrahimi? And to what extent are they compatible with the principles and ideas of modern education?
Keywords: Educational thinking؛ Reformist thought؛ Educational process؛ Al-Bashir Al-Ibrahimi

مُقدِّمة:

ولعله من الصعوبة على الدارس أن يحيط بكل آثار الشيخ البشير الابراهيمي وكتاباته المختلفة، وخاصة إذا علمنا أنه قد قضى معظم حياته في الترحال والمشاركة في الملتقيات والندوات الإصلاحية التي تعالج مختلف قضايا ومشكلات الأمة العربية الإسلامية الاجتماعية والسياسية والتربوية والأدبية. وعليه، سنركز في هذا المقال على الفكر التربوي عند البشير الإبراهيمي الذي استطاع بفكره وحكمته ونفاذ بصيرته، أن يحدث تحولات فكرية وتربوية واجتماعية كبيرة أدت إلى تغييرات كبيرة في المجتمع الجزائري. وتجلى ذلك في تعليم الشباب وتربيتهم تربية صالحة وفق منهج تربوي قويم متكامل يحميهم من الجهل وينور عقولهم ويخلصهم من كل أشكال الاستعمار والاستعباد.

1 – في مفهوم التربية عند البشير الابراهيمي:

إنَّ الشيخ البشير الإبراهيمي – رحمه الله– لم يكن شخصية عادية، وإنَّما كان مجموعة من المواهب والعبقريات، كما يقول عنه المرحوم أحمد توفيق المدني عندما انتخب عضواً بمجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة خلفا للشَّيخ البشير الابراهيمي:***"لم يكن أستاذي وأخي، ورفيق جهادي، محمد البشير الابراهيمي مجرد رجل عظيم كغيره من عظماء الرجال، بل كان الابراهيمي أمة، كان جيلا، كان عصرا، كان من أولئك الأفذاذ القلائل الذين أملوا إرادتهم على الحياة، فأخضعوا الأيام لمشيئتهم، فكيفوها كما أرادوا، فأخرجوا بلادهم من مصير شاءه لها الظالمون، إلى مصير رسموه لها بأنفسهم*** [1] ".

فلا نغالي إذا قلنا، أنَّ الإبراهيمي هو من أبرز أقطاب الحركة الإصلاحية في الجزائر، وأحد أعظم رموز نهضتنا الأخلاقية والتربوية، وإمام العربية ومربي الأجيال الَّذي أفنى عمره في مقاومة الظلم وتربية الأجيال وإنارة أذهان الغافلين. فقد كان

الإبراهيمي مُعلما ناجحاً يتبع في مقالاته إستراتيجية الخطاب التَّعليمي الهادف إلى محاربة الأمية والجهل في المجتمع. وكانت غاية التربية عنده تهدف إلى تكوين جيل قائد في الجزائر، أما عن كيفية تعليم هذا الجيل، فيرى الشيخ" ***أن في تربية النشء لا يجب أن نتوسع له في العلم، وإنّما يجب أن نربيه على فكرة صحيحة، ولو مع علم قليل*** " [2]. إنَّ نظرته إلى التَّعليم تتحدَّد بنوع الأثر الَّذي يحدثه هذا التَّعليم الملقن، ولا بكثرة المعلومات والمعارف الَّتي تخشى بها أذهان المتعلِّمين.

وتجدر الإشارة إلى أن البشير الإبراهيمي رأى أن الأمية لا تفشوا في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقتها فأبخس أنواع الحيوانات، ويقول الإبراهيمي في هذا السياق:" والأمية هي مرض فتاك ورذيلة فاضحة، وشلل وزمانه في جسم الأمة التي تبتلى بها، فإذا كنا نعرف من شؤون الأفراد أن يصاب منهم بشلل تتعطل منه وظيفة العضو المصاب، كذلك يجب أن نعرف من شؤون الأمم هذه الآثار السيئة التي تنشأ عن الأمية. وهي تعطيل المواهب والقوى مع الفرق العظيم بين تعطيل أجزاء الجسم وبين تعطيل أجزاء الأمة)[3] ".

وجدير بالذِّكر، أنَّ إصلاح التربية والقضاء على الأمية ينطلق من شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي اتخذت من مفهوم الآية القرآنية الكريمة:" ***إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم***[4] " منطلقاً لها في تغيير الأوضاع – وهو غاية العمل الإصلاحي– وطبعًا فقد أدرك البشير أن هذا التغيير لن يأتي أكله إلا إذا أحدثنا تغييرا شاملا في المنظومة التربوية " هذا التغيير لا يتأتى إلا بوسيلة التربية والتعليم؛ التربية بمعنى التوجيه السلوكي والخلقي بزرع القيم وغرس العادات الإيجابية التي تدفع للحركة والنهوض وإتقان العمل. ومن ثم الجهاد ضد الاستعمار، وهو ما لا يتم إلا بإصلاح التعليم وفق منهج سديد للتوجيه والتثقيف على أساس فكري صحيح يستمد من مرجعية الشعب الحضارية لحمة بنائه... وهو ما يقوم أولاً على تنقية الأذهان وتطهير العقول من رواسب الفكر الخرافي الذي كانت تنشره أوكار التخلف للطرقية البائدة بتشجيع فاعل لمراصد الاستعمار[5] ".

ومن أجل تطهير المجتمع من أضرار الأمية اقترح على كبار السن طريقتين لكي يتخلصوا من الأمية:

أولاً:

أن يقوم كل عضو من أعضاء الجمعية على تعليم أمي أو أكثر من أقاربه مبادئ القراءة والكتابة والعمليات الأربع في الحساب، ويحفظه سورا من القرآن .

ثانياً:

تشكيل نوادٍ مشكلة من أصحاب المهن، دور هذه النوادي هو جمع مبلغ مالي معين من المال في كل شهر ثمّ إلزام طالباً من الطلبة تعليم الكبار مبادئ القراءة والكتابة وأرقام الحساب وعملياته البسيطة في ساعتين من كل ليلة، في مقابل ذلك المبلغ الشهري الذي يجمعونه(6).

وقد تم هذا في مسعى تكوين علماء صالحين يحملون على عاتقهم هموم هذه الأمة في التغيير والإصلاح المنشود، فالتربية لا تتم إلا بمنهج التربية الصحيحة النابعة من ثقافة الأمة وعقيدتها الدينية، ولاغرو أن بنجاح التربية في بناء الإنسان الصالح يكون بذلك الحصول على الأشياء سهلاً وميسوراً.

ومما يجدر التنويه به، أن الفكر التربوي عند البشير الإبراهيمي اعتمد على مرجعيات ثلاث: المرجعية الدينية والمرجعية القومية والمرجعية الوطنية. حيث إنَّ الدين الإسلامي عنده يعد أهم الركائز الروحية التي من شأنها أن تعيد الاعتبار للشعب الجزائري في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر التي قل فيها الوازع الديني بسبب تحويل المساجد إلى كنائس ومحاربة الدين الاسلامي بشتى الطرق والوسائل. أضف إلى كل ما سبق ذكره، فقد تشبع الشيخ البشير الإبراهيمي بالمرجعية القومية من خلال حبه للغة العربية وارتباطه الشديد بها وتشبثه بتاريخ الجزائر. وإضافة إلى ذلك، مرجعيته الوطنية التي تعبر عن ولائه لوطنه، وهذا ما تجلى وتجسد في عودته من بلاد الغربة إلى وطنه ليكون مربيًا ومصلحًا.

2 – عناصر العلمية التعليمية عند البشير الإبراهيمي:

2 – 1 – المعلم:

يعدُّ المعلم العمود الفقري في العملية التَّعليمية، فهو نقطة الانطلاق وحجر الزاوية في أي إصلاح أو تطوير للمنظومة التربوية. وإنَّ الاهتمام بالتعليم يعدُّ من أهم الخطوات على طريق إصلاح التعليم؛ فتطوير نوعية التعليم، لا تتم إلا من خلال المعلم، إذ أنه يؤدي دوراً مهماً في تحقيق الأهداف التَّعليمية، وعليه يتوقف نجاح المخططات التربوية والنظم التعليمية.

ثمَّ أزيد على ما تقدم، فأقول: أنَّه نظرًا للدور الحساس والبارز للمعلم في تربية الأجيال، وجب عليه أن يتحلى بروح المسؤولية الملقاة على عاتقه من خلال الانضباط والإخلاص في العمل والسعي في تحصيل المعارف وتطويرها، مع التحلي بالأخلاق والصفات الحميدة، لأن المعلم يبقى دائمًا في نظر المتعلم القدوة التي يستمد منها قوته، لأنه يأخذ منه هذه الصفات أكثر مما يأخذ عنه المعارف الملقنة. وهذا ما أكدَّه البشير الإبراهيمي بقوله: " ثمّ احرصوا على أن يكون ما تلقنونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقا على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإنَّ الناشئ الصغير مرهف الحس... فإذا زينتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسنتم له الصبر فكونوا مع الصابرين... ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة وأمَّا ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة[7] ".

يظهر لنا من قول الإبراهيمي حاجتنا نحن – كمربين–إلى تربية هذا الجيل بالقدوة الصالحة في سلوكهم لا بالعمل على حشو أذهانهم بمختلف المعارف، لأنَّ عملية تلقين المعارف عملية متيسرة وسهلة، ولكن استمالة المتعلم وغرس الصفات والأخلاق الحميدة فيه ليس بالأمر الهين. وهو ما يجب أن يوليه المعلم كل الاهتمام، حيث يقول البشير الإبراهيمي في هذا السياق:" إنَّ المعلم لا يستطيع أن يربي تلاميذه على الفضائل إلا إذا كان فاضلا... ولا يستطيع إصلاحهم إلا إذا كان صالحا، لأنهم يأخذون منه بالقدوة أكثر مما يأخذون منه بالتلقين[8] ".

وغني عن البيان، أنَّ الابراهيمي يولي أهمية للتربية والأخلاق على سائر المكتسبات، لأنَّ في نظره التربية قبل التعليم. وهذا من منطلق أن العلم والمعرفة يمكن أن يحصلهما الإنسان في أي مرحلة عمرية من حياته بينما الخلق والسلوك القويم إن لم يتربَّ عليهما الإنسان منذ نعومة أظافره، فإنَّ مطلبهما في الكبر عسير. ومردّ كلّ هذا، أن العلم لا يحقق وحده الغاية المنشودة التي يسعى إليها كل معلم، وهي تربية التلاميذ على محاسن الأخلاق، حيث يقول:" إن العلم لم ينه مفسدا عن الإفساد، ولم يزع مجرما عن الإجرام، ولم يُمت في نفوس الأقوياء غرائز العدوان والبغي على الضعفاء، بل ما زاد المتجرّدين من الفضيلة إلا ضراوة بالشر، وتفنّنًا في الإثم، فاجعلوا الفضيلة رأس مال نفوس تلامذتكم، اجعلوا العلم ربحا[9] ".

2 – 2 – المتعلم:

ويعد هو أيضًا ركيزة أساسية في العملية التعليمية – التعليمة؛ فهو في تطلع وسعي دائم ومتجدد لاكتساب الخبرات والمعارف والمهارات والتجارب لتطوير وتنمية قدراته اللغوية والمعرفية، ولن يكون له ذلك إلا من خلال الدافعية والانتباه والنضج والاستعداد الذي يبديه للتعلم. وقد حظي المتعلم باهتمام البشير الإبراهيمي لأنه القلب النابض للمجتمع، فصلاح المجتمع يرتبط كثيرا بتربية المتعلم تربية صالحة من خلال معرفة نفسيته وميولاته ورغباته وحاجاته وخصائصه العمرية وقدراته البدنية والعقلية والروحية. وركز البشير الإبراهيمي في كتاباته على الشباب باعتبارهم كنز وطاقة هذه الأمة، حيث قال:"شباب الأمة هم عمادها، وهم مادة حياتها، وهم سر بقائها، وخير شباب الأمة المتعلمون المثقفون، البانون لحياتهم وحياة أمتهم على العلم؛ وصفة الشباب المتعلم المثقف هم المتشبعون بالثقافة الإسلامية العربية والمقدمون لها، لأنهم هم الحافظون لمقوماتها، والمحافظون على مواريثها، وهم المثبتون لوجودها، وهم المصححون لتاريخها، وهم الواصلون لمستقبلها بماضيها"[(10)].

2– 3 – المحتوى التعليمي:

المحتوى التعليمي هو الوسيلة التي تستعملها المدرسة لتتمكن من الوصول إلى تحقيق الأهداف التي يؤمن بها المجتمع، والتي اشتقت من الفلسفة التربوية لذلك المجتمع. وذلك لتحقيق أهدافه في تعليم أبنائه الاتجاهات والممارسات والمبادئ والقيم التي يؤمن بها المجتمع[(11)]. فوضع المنهاج يحتكم إلى أسس علمية تتبنى التخطيط العلمي الدقيق الذي يستبعد الأهواء والرغبات الشخصية؛ إذ لكي يقوم المنهاج بدوره في إعداد الطلبة الناشئة للحياة على أسس معرفية، يجب أن يتماشى أو يتلاءم مع ما يحدث فيها من خبرات وظروف ومطالب وآمال متغيرة[(12)]. فعليه، فقد بنيت السياسة العامة للتعليم لدى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفق الدليل الموجه للنشاط التعليمي للجمعية الذي ينطلق من ***ذاتية المتعلم الجزائرية، وجنسيته ولغته العربية، ودينه الإسلامي.***

يرى الإبراهيمي أن السياسة التربوية في التعليم يجب أن تنطلق من وضع منهج واحد في التعليم بغية الوصول إلى تحقيق الأهداف المنشودة في الميدان التربوي والتعليمي، وهذا من خلال رسم النموذج التعليمي الذي يلائم المجتمع، ويحقق تطلعات الأجيال. وما الضعف الذي لاحظناه في المتعلمين إلا لكونهم لا يعتمدون على منهج

واحد في التعليم، إذ يقول:" إن الذبذبة التي شهدنا آثارها السيئة في هذا الجيل الذي نحن في آخره، معظم السبب فيها آت من قارئيه ومتعلميه – على قلتهم– فهم على تفاهة معلوماتهم وقلة محصولهم من المعرفة، لا يرجعون إلى أصل واحد في التعليم، ولا إلى منهج واحد في التربية. وإذا اختلفت الأصول والمناهج في أمة واحدة كانت كلها فاسدة، لأنَّ الصالح كالحق لا يتعدد ولا يختلف[13] ".

وفي هذا المسار تتجلى عند الإبراهيمي أهمية الاحتكام إلى سياسة تعليمية هادفة في وضع البرامج التعليمية، لأنَّ نجاح هذه البرامج هو مقياس حقيقي لنجاح التعليم، وفشل السياسات التعليمية فيها مؤشر على فشل تكوين الفرد وإعداده. لذلك يجب رسم سياسة تعليمية هادفة تحدّد فيها الطرائق والغايات والأهداف التربوية، يقول الإبراهيمي إنَّ هذا البرنامج الذي أضعه بين أيدي أبنائي المعلمين، والبرنامج الذي وضعته للتعليم التجهيزي، والذي وضعته لتعليم البنت المسلمة، كلها مرشدة لهم على أحسن الطرائق في التعليم، ومعينة لهم على تنسيق المسائل في هذا الوقت الذي تعثرت فيه الكتب[14] ".

إنَّ التعليم عند الإبراهيمي وسيلة والتربية غاية، والغاية تسبق الوسيلة عند بناء المناهج التعليمية، ولكن لابدَّ من الوسيلة والغاية في إعداد المناهج التعليمية، وذلك من خلال التركيز على الطريقة البيداغوجية الفعالة في التدريس. ولتحقيق هذا الهدف أو منظومة الأهداف وتجسيدها في أرض الواقع لابدَّ من وضع أرضية تستند إلى فلسفة واضحة في التربية والتعليم؛ ذلك لأنَّ التربية لا تؤدي وظيفتها الحقيقية إلا بالقدر الذي تحققه من الأهداف والغايات والمرامي التيّ تتجسد في أخلاق الأفراد وسلوكياتهم داخل مؤسسات المجتمع المختلفة. إن تعليم أبناء الأمة وتربيتهم قضية بالغة الأهمية، بل هي من أكبر القضايا وأعظمها التي يجب أن تحظى بكل الرعاية والاهتمام نظراً لامتداد نتائجها وثمارها إلى الأجيال المقبلة.

ولاشك أن الناظر والمتمعن في آراء الإبراهيمي، يدرك بجلاء أهمية توحيد المناهج التعليمية في التربية والتعليم، ويقول في هذا السياق:" وليتبيّنوا أن الغاية من توحيد البرنامج هو توحيد التعليم والتربية حتى ينشأ هذا الجيل مطبوعا بطابع واحد في لسانه وبيانه وقلمه وفي تفكيره ومشربه، وفي آرائه في الحياة ونظرته إليها وأحكامه عليها[15]".

وبما أن العملية التعليمية ترتبط بتحقيق مجموعة من الأهداف في المتعلم؛ والأهداف هي الخطوة الأولى في أي عمل تربوي، لأنها هي الموجه لهذا العمل الذي يستهدف تنمية المتعلم وتحديد كفاءة المعلم وكفاءة المؤسسة التعليمية، والحكم على مدى نجاح الممارسات التربوية داخل المؤسسة وخارجها[16]. فإنَّ المناهج التعليمة إن اختلفت وتعددت في مجتمع ما، فإنَّ ذلك لا محالة يؤدي إلى تغيرات مختلفة في سلوكيات الأفراد وتصرفاتهم داخل المجتمع الواحد، ولا ريب أن هذا الاختلاف يؤثر تأثيراً سلبياً في توجهاتهم الدينية العقائدية والاجتماعية والفكرية.

ومما يندرج في سياق ربط المنهاج التربوي بالمحيط الاجتماعي للمتعلم، ومدى قدرة المعلم على الاقتداء بالأخلاق والصفات الحميدة التي تترك أثرها في المتعلم، يُقرُّ الإبراهيمي بأهمية أن لا يجعل المعلم كل همه ودوره فقط في تدريس البرنامج الدراسي للمتعلم، بل يجب أن يتعداه إلى توجيه كل جهوده إلى تكوين شخصية المتعلم من جميع جوانبها الجسمية والنفسية والعقلية والمعرفية، حيث يقول:" أعيذكم بالله يا أبنائي المعلمين أن لا تجعلوا كل اعتمادكم في تربية الصغار للرجولة على البرامج والكتب. فإنَّ النظم الآلية لا تبني عالماً وتكوّن أمّة ولا تجدّد حياة إنّما هي ضوابط وأعلام ترشد إلى الغاية، وتعين على الوصول إليها من طريق قاصد وعلى نهج سويّ[17] ".

ومعنى هذا، أن دور المعلم لا يجب أن يقتصر على نقل المعلومات والشرح والتفسير وإعطاء الأمثلة، بل يتعداه إلى السعي نحو تغيير سلوك المتعلم وتصرفاته. ولا شك أن الاعتماد فقط على الكتاب المدرسي لا يساعد كثيراً المتعلم على فهم البيئة التي يعيش فيها، وحل مشكلاتها، أو تنمية اتجاهات وقيم اجتماعية تساير فلسفة المجتمع الذي يعيش فيه المتعلم[18]. ويمكننا توضيح عناصر العملية التعليمية عند الشيخ البشير الابراهيمي بالخطاطة التالية:

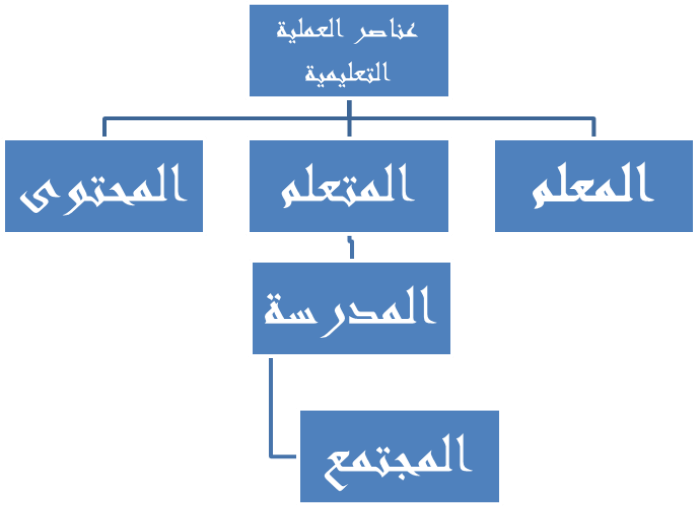

خطاطة توضيحية لعناصر العملية التعليمية عند البشير الابراهيمي

3- المدرسة التي ينشدها الابراهيمي :

بما أن المدرسة أول عتبة يقتحمها المتعلم لتعلم لغة المجتمع الذي ترعرع فيه، فإنه يتجلى لنا – بما لا يدع أي مجال للشك – دور المدرسة إلى جانب المحيط الاجتماعي والأسري في تكوين مواطن مثقف ومتعلم، متشبع بالمبادئ والقيم الإنسانية. المدرسة هي –إذن– مؤسسة اجتماعية ضرورية تهدف إلى ضمان التواصل بين العائلة والدولة من أجل إعداد الأجيال الجديدة ودمجها في إطار الحياة الاجتماعية[19].

وبناء على ما سبق ذكره، اعتبر البشير الإبراهيمي أن تحصيل العلم يرتبط بالمدرسة، إذ قال:" الحياة بالعلم والمدرسة منبع العلم ومشرع العرفان وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة... أما إرواء العقل والروح، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى، فالتمسهما في المدرسة، لا في القصر، ولا في المصنع، ولو تباهت الأبنية المشيدة بغاياتها... لأسكتت المدرسة كل منافس".[20]

وبالنَّظر إلى المسوّغات السابقة، فإنَّ المدرسة أصبحت اليوم – أكثر من أي وقت مضى – قادرة على قيادة التغيير الذي ينشده المجتمع، وهذا ما جعل الإبراهيمي يضع تصوراً تعليمياً ينطلق من المرحلة الابتدائية التي تعد مرحلة قاعدية متينة في تكوّن شخصية المتعلم الجزائري، حيث يقول:" مرحل التعليم الابتدائي هي – بالأصول –

مراحل التكوين الأول للناشئة، وعلى أساسها يُبنى مستقبلهم في الحياة، فإنَّ كان هذا التّكوين صالحاً كانوا صالحين لأمتهم ولأنفسهم، وإن كان ناقصاً مختلاً زائفاً بنيت حياة الجيل كلّه على فسادٍ، وساءت آثاره في الأمة، وكانت الأميّة أصلح منه وأسلم عاقبة[21]".

ثمَّ إنَّ التّوجه الذي رسمه الإبراهيمي في وضع مناهج التّعليم الابتدائي الجزائري عمل على تكوين شخصية المتعلم، باعتبار أن المدرسة هي النواة الأولى في اكتساب المتعلم للمهارات اللغوية المختلفة، والتحصيل العلمي والمعرفي. وبذلك تتطور لدى المتعلم عمليات الخلق والإبداع لديه، وتترسم فيه الاتجاهات والأنماط السلوكية التي يسعى المجتمع إلى غرسها فيه. ولابدّ هنا من الإشارة إلى أنّ الإبراهيمي في تحديد معالم التّعليم في النظام التعليمي ركّز على خاصيتين:

1 – الأولى:

أن يكون هذا التعليم تعليما عربياً خالصاً في لغته وأهدافه العامة وغاياته ومراميه، بحيث ينسجم مع مقومات الشعب الجزائري وتراثه الحضاري.

2 – الثّانية:

البرامج التعليمية يجب أن تضعها أيادي وطنية خالصة، تغرس في أبنائنا خصوصية الأمة وثوابتها وعقيدتها الإسلامية التي تعيش في أعماق كلّ فرد من أفرادها. وخاصة أن هذه البرامج الوطنية هي الوسيلة المثلى لتّعليم اللّغة العربيّة ولغرس التعاليم الإسلامية التجديدية – ومعها طبعا النزعة العربية والوطنية – في عقول الناشئة وقلوبهم. وبذلك نقاوم تيار الفرنسة الذي يعمل منذ أن احتل الجزائر على أن يجردها من هويتها الإسلامية والعربية.

لقد ركز الإبراهيمي كثيرا على مصير التلاميذ الذين ينهون مرحلة التعليم الابتدائي بمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فسعى إلى تأسيس معهد يستكمل فيه أولئك التلاميذ دراستهم، فكان له ما أراد من خلال تأسيسه لمعهد الإمام بن باديس في مدينة قسنطينة، وكان هذا التأسيس يهدف إلى التبادل العلمي والمعرفي بين المؤسسات التعليمية العربية، وتمكين حاملي شهادة المعهد من الالتحاق بالمؤسسات التعليمية العليا في المشرق العربي، وتوجيه النوابغ لاستكمال معلوماتهم من جهة أخرى[22].

3 – 1 – بناء المدارس:

يعتقد الابراهيمي أن التعليم نوع من الجهادــ، ويرى أن المدارس ميادين جهاد، ويعتبر المعلمين مجاهدين، مستحقين لأجر الجهاد، لأنّ التّعليم هو عدو الاستعمار الألد[23]. ثمّ أزيد على ما تقدم، فأقول أنَّ الهدف من بناء والمدارس وتشييدها هو السعي نحو الحرية والتّحرر من براثن الاستعمار، لهذا رأى الإمام الإبراهيمي أن هذا التحرر لن يكون إلا إذا حضرنا وأعددنا وسيلته، فلا يمكن أن تسبق الغاية الوسيلة، وما الوسيلة حسب – تصوره – إلا بالعلم بأوسع معانيه.

التربية المطلوبة هي التي تكون في معاهد ومدارس عربية إسلامية تصقل الروح وتهذب السلوك، وتربي المتعلم على الأخلاق الإسلامية الحميدة. ويرى الإبراهيمي المصلح الثائر بأنّها" السبيل القويم الذي يؤدي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشرور المتوارثة، وإلى توثيق عرى التوافق بين أفراده، وإلى توحيد أفكاره ومشاربه واتجاهاته، وإلى تصحيح فهمه للحياة وتسديد نظرته إليها، وتشديد عزيمته في طلبها، هو المدرسة العربية التي تصقل الفكر والعقل واللسان، وتسيطر عليها، وتوجيه الناشئ إلى الإسلام والعرب، وإلى الشرف والروحانية[24] ". بعد هذا الذي قام به الإبراهيمي يكون قد ضرب الاستعمار في جبروته وهمجيته، حيث سعى بكل الطرق والسبل إلى بناء المدارس، وتربية النشء على القيم والمثل والفضائل السامية.

3 – 2 – تكوين لجنة التعليم العليا:

لقد عمل الإبراهيمي على تأسيس وإنشاء لجنة التعليم العليا يوكل لها مهمة التعليم وتنظيمه، فكان له ما أراد بأن رأت النور هذه اللجنة بتاريخ13 سبتمبر1948، فكانت بمثابة وزارة تربية شعبية، أوكل لها وضع البرامج والمقررات التّعليمية، وإصدار اللوائح التنظيمية، وتعيين المعلمين، ووضع الدرجات لهم، واختيار المفتشين، وتنظيم ملتقيات تربوية[25].

3 – 3 – إنشاء الشهادة الابتدائية:

عملت الجمعية على منح شهادة تؤكد لحاملها متابعة الدراسة الابتدائية، وتخول له متابعة التعليم الموالي، ولا ريب أن لهذه الشهادة تأثير نفسي قوي على حاملها. وفي الأخير نوضح كل ما آنف ذكره بالخطاطة التالية:

خطاطة توضيحية للمدرسة التي ينشدها البشير الإبراهيمي

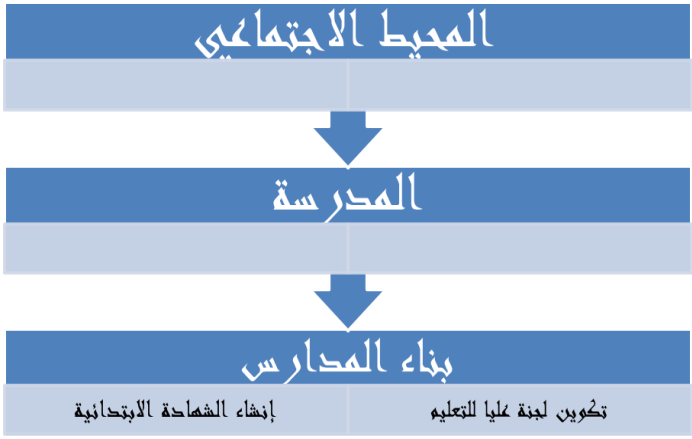

4 – خاتمة:

وبهذا الذي أسلفنا بسطه، نرى أن الفكر التربوي عند الإمام البشير الإبراهيمي يركز على عناصر العملية التعليمية المعلم والمتعلم والمحتوى. وعليه أقر البشير الإبراهيمي بضرورة الاهتمام والعناية بالمعلم لأنه دعامة المجتمع ، وهو الذي يقوم بتربية الأجيال، فيكون بذلك البشير الإبراهيمي قد أنزله المنزلة التي يستحقها، وهذا لأن دوره كما أقر بذلك الإبراهيمي يتجاوز أدوار التربية والتعليم في المدرسة إلى أدوار أخرى في المجتمع ترتبط بالتوجيه والنصح والإرشاد. ومن هنا، رأى الإبراهيمي أن صلاح أي أمة يرتبط بصلاح معلميها،، واحترام العامة لهم. كما رأى بضرورة الاهتمام بالمتعلم خاصة في بداية مراحل نموه الأولى، لأن نجاح المتعلم وتفوقه وفعاليته متوقف إلى حد بعيد على نوعية الرعاية والتربية التي تقدم للطفل في هذه المرحلة. وأضف إلى ما سبق ذكره، ألح على أخذ العلم من أفواه المشايخ والعلماء وبطون الكتب. ومعلوم أن نهضة أية أمة يرتبط بمدى قدرتها على إصلاح مناهج تعليمها بما يقود في النهاية إلى تصحيح واقع المجتمع وهو ما يتوافق مع طموحات أفراد المجتمع وتطلعاتهم. وهذه الطموحات لا تتحقق إلا إذا حددت المادة التعليمية وتم اختيارها وفق منهج مضبوط، فجودة مخرجات العملية التعليمية يرتبط كثيرا بجودة مخرجات العملية التعليمية. وهذه الروئ والتصورات السالفة الذكر تتوافق مع التربية الحديثة التي تعسى إلى تنظيم العملية التعليمية– التعلمية (التدريس) وفق ما يقتضيه المحتوى المدرس، وطرائق تقديم هذا المحتوى وعرضه.

الهوامش:

(1)– أحمد توفيق المدني، الإبراهيمي كان أمة، كان جيلا، كان عصرا، مجلة الثقافة، دار الوعي للنشر والتوزيع، العدد 87 ، الجزائر،1985 ، ص39

(2)– عبد الغفور شريف، موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية من خلال جريدة البصائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر،2010 – 2011 ،ص205

(3)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الابراهيمي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، 1997 ، ص203

(4)– سورة الرعد: الآية 11

(5) – مالك بن نبي، شروط النهضة، تر:عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق ط1986،1 ، ص24 – 25 .

(6)– عبد الغفور شريف، موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية من خلال جريدة البصائر ، ص106

(7)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ، 1971 ، ص291

(8)– آثار محمد البشير الإبراهيمي: محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ، ص113

(9) – المرجع نفسه، ص111

(10)– المرجع نفسه،ص196

(11) – سعدون محمد الساموك، هدى علي جواد الشمري، مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها، دار وائل للنشر ، الأردن، ط1، 2005 ، ص102

(12) – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(13)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ، ص111

(14)– المرجع نفسه، ص110

(15) – المرجع نفسه، ص111

(16)– حسن شحاتة، المناهج التربوية بين النظرية والتطبيق، مكتبة الدار العربية، القاهرة،ط1 ، 1998 ، ص61

(17)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ، ص111

(18)– حسن شحاتة، المناهج التربوية بين النظرية والتطبيق، ص8 ، 9

(19)– علي أسعد وطفة، علي جاسم الشهاب: علم الاجتماع المدرسي، مجد الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2004، ص 17

(20)– محمد البشير الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ، ص109

(21) – المرجع نفسه، ص258

(22) – المرجع نفسه، ص20

(23) – عبد الغفور شريف، موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من الثورة التحريرية من خلال جريدة البصائر ، ص 107

(24) – آثار محمد البشير الإبراهيمي، محمد البشير الإبراهيمي ، ص302

(25)– المرجع نفسه، ص20